حَوْلِيَّةُ سِمِنَارِ التَّارِيخِ الإِسْلَامِيِّ وَالْوَسِيط

٧

الجمعية المصرية للدراسات التاريخية
رئيس مجلس الإدارة
أ.د. أيمن فؤاد سيد

الهيئة المصرية العامة للكتاب
رئيس مجلس الإدارة
د. هيثم الحاج علي

حَوْلِيَّةُ سِمِنَارِ التَّارِيخِ الإِسْلَامِيِّ وَالْوَسِيط

مجلة سنوية محكمة تعنى بالتاريخ الإسلامي والوسيط
يصدرها سمنار التاريخ الإسلامي والوسيط
بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية

كل الحقوق محفوظة
للهيئة المصرية العامة للكتاب

الترقيم المطبوع
2735-3923

رقم الإيداع بدار الكتب
2013/18750

الترقيم الإلكتروني
2735-4725

موقع المجلة على بنك المعرفة:
hsew.journals.ekb.eg

٢٠١٩م

قطعة ٤ بلوك ٧ – المنطقة التاسعة – شارع د. رؤوف عباس- مدينة نصر – القاهرة
تليفون: ٠١١٢٧٣٨١٩١٢ – ٢٧٤٢٨٢٩١ – ٢٧٤٢٨٢٩٦ – فاكس ٢٤٧٢٨٢٩٨

Email: Seehist1945@yahoo.com

الهيئة المصرية العامة للكتاب

حَوْلِيَّةُ سِمِنَارِ
التَّاريخِ الإسلاميَّ والوسيط

مَجلة عِلميَّة مُحَكَّمة

تُصْدرها

الجمعية المصرية للدِّراسات التاريخية

المراسلات : الأستاذ الدكتور أيمن فؤاد سيد

رئيس مجلس إدارة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

eegyptian.historical2021@gmail.com

العدد السابع

القاهرة

١٤٤٠هـ / ٢٠١٩م

رئيس مجلس الإدارة أ.د. أيمن فؤاد سيد

هيئة التحرير

رئيس التحرير: أ.د. حسين سيد عبدالله مراد

مديـر التحرير: د. محمد فوزي رحيل

أ.د. صلاح الدين علي عاشور

أ.د. عبير زكريا سليمان

أ.د. نهلة أنيس مصطفى

د. عبدالناصر إبراهيم عبدالحكم

الهيئة الاستشارية الدولية

أ.د. إبراهيم عبدالمنعم سلامة (مصر)

أ.د. اسحق تاوضروس عبيد (مصر)

أ.د. حاتم عبدالرحمن الطحاوي (مصر)

أ.د. عبدالقادر بوباية (الجزائر)

أ.د. عبدالله بن سعيد الغامدي(السعودية)

أ.د. عبدالهادي ناصر العجمي (الكويت)

أ.د. عفاف سيد صبرة (مصر)

أ.د. فتحي عبدالفتاح أبو سيف (مصر)

ا.د. قاسم حسن السامرائي (العراق)

ا.د. لطفي بن ميلاد (تونس)

أ.د. محمد أحمد بديوي (مصر)

أ.د. محمد عيسي الحريري (مصر)

أ.د. محمد الناصر صديقي (تونس)

Prof. Dr. Albrecht Fuess (Germany)

Prof. Dr. Sylvie Denoix (France)

Prof. Dr. Tetsuya Ohtoshi (Japan)

الآراء الواردة بهذه المجلة تعبر عن وجهة نظر أصحابها

ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الجمعية أو السمنار أو الناشر

شروط النشر بالحولية

- ترحب الحولية بنشر البحوث العلمية المبتكرة في التاريخ الإسلامي والوسيط باللغتين العربية والإنجليزية.
- يكون البحث في حدود ٣٥ صفحة، بما في ذلك الحواشي اللازمة والملاحق وقائمة المصادر والمراجع.
- ترسل البحوث على موقع الحولية على بنك المعرفة ولن يلتفت إلى الأبحاث التي ترسل عن طريق آخر.
- يرفق الباحث مع البحث سيرة علمية مختصرة (CV)، وملخصًا للبحث باللغة العربية ولغة أجنبية في حدود (١٥٠) كلمة لكل منهما والكلمات المفتاحية.
- يقدم الباحث إقرارًا كتابيًّا بأن البحث لم يسبق نشره في أي مجلة علمية أو غيرها، وعدم الدفع به إلى النشر في جهات أخرى[1] بعد موافقة الحولية على نشره.
- تقدم الخرائط والأشكال والرسوم البيانية بأصولها الصالحة للطباعة، وفي حال رغبة الباحث نشرها ملونة يلتزم بدفع تكاليفها.
- تتمتع الحولية بحق الملكية الفكرية للبحوث التي تنشرها، ويمكن للباحث إعادة نشر بحثه في جهة أخرى[1] بعد مرور خمس سنوات على النشر بالحولية، وبموجب أذن كتابي من رئيس تحرير الحولية.

- لا تقبل الحولية البحوث التي سبق نشرها في أي مجلة علمية أو غيرها.
- توضع الهوامش مرتبة بطريقة متسلسلة في أسفل البحث.
- تخضع البحوث قبل النشر للتحكيم العلمي على نحو سري (معمي).
- يتم تقويم البحث وفقًا للعناصر التالية:
  - أن يكون البحث مبتكرًا، ومضمونه متكامل علميًّا.
  - وضوح المنهج، وملائمته لموضوع البحث.
  - رعاية الإخراج العلمي وتوزيع عناصر البحث.
  - سلامة اللغة ووضوح الصياغات والعبارات.
  - كفاءة المراجع وصحة التوثيق، وسلامة الهوامش، ودقة استخدام المصادر والمراجع.
- البحوث التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها، حتى وإن كانت طفيفة، وفي حال ما إذا رأت الحولية عدم نشر البحث، تخطر صاحبه بالاعتذار عن عدم النشر مع بيان الأسباب.

مُقَدِّمَة

يسعد مجلس إدارة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بالتعاون مع أسرة سمنار التاريخ الإسلامي والوسيط بالجمعية أن يقدما لكل المهتمين بحقل التاريخ الإسلامي والوسيط الحولية رقم (٧) لعام ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م.

وهذا المجلد من الحولية يتضمن خمسة بحوث متميزة من البحوث المُحَكّمة، تتناول عددًا من موضوعات التاريخ الاجتماعي الإسلامي والوسيط، أولها تناول سكان وأسواق دَبَاعاصمة عُمان في عصري الجاهلية وصدر الإسلام، وعرض الثاني لأهمية كتب المناقب في دراسة التاريخ للمغرب الأقصىٰ، أما البحث الثالث فأكد تأثير الحرب علىٰ البنية الاجتماعية في بلاد السودان الغربي. والبحث الرابع تناول طائفة المؤذنين في مصر في العصر المملوكي. وجاء البحث الأخير عن الدير اللاتيني (البندكيتي) في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية.

وبعد... نشكر إسهامات الباحثين راجين أن نستفيد جميعًا من جهدهم وفكرهم، وأن يكون الجهد قد أضاف إلىٰ المكتبة التاريخية جديدًا وأن تحوز هذه الأبحاث رضاء الباحثين والقراء.

ونأمل أن يساهم الباحثون المتخصصون ببحوثهم في أعداد الحولية القادمة، وأن نتلقىٰ الاقتراحات حول ما يضيف إلىٰ الحولية الجديدة في حقل البحث التاريخي الإسلامي والوسيط.

واللهُ ثم الوطن العزيز من وراء القصد،،،

أسرة التحرير

المحتويات

١- سُكان وأسواق دَبَا فرضة عُمان والعرب المشهورة في عصري الجاهلية وصدر الإسلام ١١-٥٠

إبراهيم سلامة عبدالمنعم أبو العلا

٢- كتب المناقب مصدرا لدراسة الدور المجتمعي لمتصوفة المغرب الأقصىٰ في عصر الموحدين ..... ٥١ - ٨٦

حسين عبدالله مراد

٣- الحرب والبنية الاجتماعية في السودان الغربي ..... ٨٧ - ١٣١

بطل شعبان محمد

٤- طائفة المؤذنين في العصر المملوكي ..... ١٣٣ - ١٧٤

سماح عبدالمنعم السلاوي

٥- الدير اللاتيني (البندكيتي) في جبل طابور علىٰ عصر الحروب الصليبية ..... ١٧٥ - ٣٠٠

حجازي عبدالمنعم سليمان

حَوْلِيَّةُ سِمِنَارِ التَّارِيخِ الإِسْلَامِيِّ وَالْوَسِيط ٧ (٢٠١٩)، ٥١ - ٨٦

كتب المناقب مصدرا لدراسة الدور المجتمعي لمتصوفة المغرب الأقصي في عصر الموحدين ٥٤١ – ٦٨٨ هـ/ ١١٥٦-١٢٦٩م

حسين سيد عبدالله مراد (١)

ملخص:

تعد دراسة التاريخ الاجتماعي أحد أهم جوانب البحث التاريخي، لكنها تحتاج إلي الاطلاع علي مصادر غير تقليدية، وعدم الاعتماد بشكل كامل علي المصادر الإخبارية المتاحة. ومن أهم هذه المصادر كتب الفقه والنوازل والفتاوي والحسبة والمناقب وغيرها. وسوف نعتمد في هذا البحث علي كتب المناقب للتعرف علي جانب مهم من جوانب التاريخ الاجتماعي في بلاد المغرب الأقصي في عصر الموحدين، ألا وهو دور المتصوفة في المجتمع، وخاصة الممارسات الاجتماعية لهذه الشريحة، تلك الممارسات المغيبة في المصادر التاريخية، وأدوار هذه الشريحة في المجتمع لا سيما أثناء الأزمات والمحن. هذا بالإضافة إلي أن المصادر التاريخية لا تمكن الباحث في التاريخ الاجتماعي من أن يرسم صورة أقرب إلي الواقع للكيفية التي كان يعيش بها

(١) أستاذ التاريخ الإسلامي، كلية الدراسات الأفريقية العليا - جامعة القاهرة

أفراد المجتمع. ومن هنا يمكننا القول بأن كتب المناقب تعد واحدة من أهم المصادر "الدفينة"، كما أطلق عليها بعض المؤرخين، إذ تمكننا من إلقاء أضواء علي تاريخ المهمشين، خاصة أن كتب المناقب تمتاز بالحرص علي ضبط أماكن الأحداث وزمانها وهي معطيات يصعب العثور عليها في كتب النوازل الفقهية.

Abstract:

The study of social history is one of the most important aspects of historical research, but it needs to be familiar with non-traditional sources, and not to rely completely on the available news sources. Among the most important of these sources are books of Fiqh, Nawazil, Fatwas, Al-Hisbah, Al-Manaqib and others. In this research we will rely on books of Al-Manaqib to identify an important aspect of social history in the countries of the Far Maghreb in the era of the Almohades, namely the role of the Sufis in society, especially the social practices of this segment, those practices that are absent in historical sources, and the roles of this segment in society Especially during crises and tribulations. This is in addition to the fact that historical sources do not enable the researcher in social history to draw a more realistic picture of how the members of society lived. Hence, we can say that the books of Al-Manaqib are one of the most important "buried" sources, as some historians have called them, as they enable us to shed light on the history of the marginalized, especially since the books of Al-Manaqib are distinguished by their keenness to control the locations and times of events, which are data that are difficult to find in the books of Nawazil.

مقدمة:

لا تعين المصادر الإخبارية المتاحة لكتابة تاريخ المغرب الأقصي في كتابة التاريخ الاجتماعي لهذه البلاد، خاصة الممارسات الاجتماعية لطبقات المجتمع تلك الممارسات المغيبة في تلك المصادر. كما أن هذه المصادر لا تمكن الباحث في التاريخ الاجتماعي من أن يرسم صورة أقرب إلي الواقع للكيفية التي كان يعيش بها أفراد المجتمع . ومن هنا فإن دعوة العديد من الباحثين الرواد في التاريخ الاجتماعي للمغرب الأقصي أمثال علامة المغرب المرحوم الأستاذ محمد المنوني والدكتور محمود اسماعيل والدكتور إبراهيم بوتشيش، بضرورة الاعتماد علي مصنفات تنتمي إلي حقول مختلفة كالمناقب، والنوازل والفتاوي والفقه، والحسبة، وكتب الوثائق والجغرافيا والرحلات، وكتب الفلاحة، وغيرها. وقد أطلق المرحوم محمد المنوني علي هذه المصنفات " المصادر الدفينة " التي تقدم مادة جديدة عن بنيات المجتمع الاقتصادية والاجتماعية بالإضافة إلي الذهنيات.

وتعد كتب المناقب الأهم بين هذه المصادر الدفينة، إذ تمكننا من إلقاء أضواء علي تاريخ المهمشين، ذلك التاريخ الذي صمتت عنه المصادر الإخبارية. وقد أبرزت المصادر المناقبية العديد من الممارسات الاجتماعية التي لا تتردد في المصادر المتاحة، ومما يميز كتب المناقب ضبط أماكن الأحداث وزمانها وهي معطيات تصعب في مدونات النوازل الفقهية.

واعتمدت هذه الدراسة علي أهم كتب المناقب التي تنتمي لعصر الموحدين، منها كتاب " المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد " للتميمي المتوفي عام ٦٠٣-٦٠٤هـ[٢]، وكتاب " التشوف إلي رجال

(٢) انظر مقدمة تحقيق كتاب المستفاد للدكتور محمد الشريف، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان، ٢٠٠٢، القسم الأول، ص ١٦ - ١٩.

التصوف وأخبار أبي العباس السبتي " للتادلي، المتوفي عام ٦٢٧هـ[٣]، بالإضافة إلي كتاب " دعامة اليقين في زعامة المتقين " لأبي العباس العزفي، المتوفي عام ٦٣٣هـ[٤].

إن كتب المناقب لم تكتب علي أيدي رجال السلطة بل كتبت بدافع ذاتي لمؤلفها، فالتادلي يذكر سبب تأليفه لكتاب التشوف، ويرجع ذلك – من وجهة نظره – إلي إهمال حياة الصالحين والزهاد والصوفية في أقصي المغرب حتي جهلت آثارهم[٥]. إن ما قام به التادلي وغيره من كتاب المناقب قد رد الاعتبار لتاريخ البسطاء والفئات الدنيا من المجتمع[٦].

تبين كتب المناقب عوامل ازدهار التصوف في بلاد المغرب الأقصي في عصر الموحدين ،فقد ازدهر بتأثير عدة عوامل داخلية وخارجية، أسهمت في زيادة أعداد المتصوفة في تلك البلاد وفي ذلك العصر. منها التأثير المشرقي الذي صادف أرضًا خصبة، كما ساعدت عدة عوامل داخلية علي تحقيق النجاح الذي صادفه التصوف في المغرب الأقصى.

أولًا – التأثير المشرقي:

وجدت الحركات الدينية التي ظهرت في المشرق الإسلامي منذ صدر الإسلام أصداء لها في بلاد المغرب، شاهدنا ذلك في ظهور مذهب الخوارج الذي انتشر في بلاد المغرب من أدناها إلي أقصاها، وكذلك الدعوة العلوية

(٣) انظر مقدمة تحقيق كتاب التشوف للأستاذ أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ١٩٨٤، ص ٥٠-٣٠.

(٤) انظر مقدمة تحقيق كتاب دعامة اليقين للأستاذ أحمد التوفيق، مكتبة خدمة الكتاب، الرباط، ١٩٨٩، ص أ- ي.

(٥) التشوف، ص ٣١.

(٦) بوتشيش: إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي وتاريخه الاقتصادي والاجتماعي، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢، ص ٤٦.

التي قامت علي أساسها دولة الأدارسة في فاس، والمذهب الشيعي الذي قامت علي أساسه الدولة الفاطمية في بلاد المغرب. لذلك كان الأمر سيبدو غريبًا لو لم ينجح التصوف المشرقي في النفاذ إلي بلاد المغرب الأقصي ويتغلغل فيه. فالتصوف المغربي وفد من المشرق(٧).

يتضح التأثير المشرقي في وجود بعض مؤلفات كبار متصوفيه في المغرب الأقصي وقيام متصوفة هذه البلاد بدراستها شيوخًا ومريدين. كما وصل التأثير المشرقي عن طريق رحيل عدد من متصوفة المغرب إلي المشرق، بالإضافة إلي رحيل بعض صوفية المشرق إلي المغرب الأقصي لزيارة إخوانهم هناك.

ذاعت كتب بعض صوفية المشرق بين أيدي صوفية المغرب واطلعوا عليها وتأثروا بها. وقد ساعدت تلك المؤلفات في نقل صلحاء المغرب إلي مرحلة التصوف. ومن أهم هذه المؤلفات كتاب " الرعاية لحقوق الله والقيام بها " للمحاسبي(٨) المتوفي ببغداد في عام ٢٤٣ هـ/ ٨٥٧ م. فهذا الكتاب كان يدرس نظرًا لقيمته في هذا العلم، فقد تلقي هذا الكتاب أبو مدين شعيب المتوفي عام ٥٩٠هـ/ ١١٩٣م سماعًا من الصوفي أبي الحسن بن حرزهم المتوفي عام ٥٥٩هـ/ ١١٦٣م(٩). وكان ابن حرزهم يقوم بقراءة

---

(7) Bel A : La Religion Musulmane en Berberie Paris 1938 Tome 1 p 343.

جورج مارسيه: بلاد المغرب الإسلامي وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ترجمة محمود عبدالله هيكل، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٩١، ص ٣٣٢.

(8) Massignon : Art Almuhsibi in Encyclopedia of Islam.

عن المحاسبي، انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٦٨، جـ ٢، ص ٥٧،٥٨.

(٩) التادلي: التشوف إلي رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق أحمد التوفيق، الرباط، ١٩٨٤، ص ٣٢٢؛ ابن قنفذ: أنس الفقير وعز الحقير، نشر محمد الفاسي وأدولف فور، الرباط، ١٩٦٥، ص ١٤؛ المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٦٨، جـ ٧، ص ١٢٧؛ السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدار البيضاء، ١٩٥٤ ، حـ٢، ص ١٨٩.

الرعاية علي طلاب العلم وصوفيته، ولما توفي قام تلميذه الصوفي أبو موسي عيسي بن الحداد بخلافته في إقراء هذا الكتاب(١٠). وكان تأثير المحاسبي – من خلال كتابه – كبيرًا علي صوفية المغرب، إذ وضع أسس التصوف الصحيح وقواعده فتصوفه كان بعيدًا عن الاختلاط بالآراء الفلسفية البعيدة عن روح الإسلام ، ويبرز هذا في كتابه معالم الطريق الصوفي، وطريقة تأديب المريدين(١١).

لقد وضع المحاسبي قاعدة الحياة التي ينبغي علي الصوفي اتباعها وتقوم علي أساس محاسبة الصوفي لنفسه، ويقول أبو مدين: بالمحاسبة يصل العبد إلي درجة المراقبة(١٢). كما أن أبا شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجي المتوفي عام ٥٦١هـ/ ١١٦٥م قام بمحاسبة نفسه قبل أن يحاسبه الله(١٣). أما الصوفي أبو عبدالله محمد البردعي الأسود السجلماسي فكان يحاسب نفسه لشدة خوفه من الله(١٤)، وصار علي هذا النهج من محاسبة النفس عدد من متصوفة المغرب الأقصي منهم يحيي بن صالح الهسكوري(١٥)، ومحمد بن عبدالله بن عثمان الصنهاجي المراكشي المتوفي عام ٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م (١٦) بالإضافة إلي متصوفة آخرين(١٧).

---

(١٠) التميمي: مصدر سابق، ص ١٠٥.

(١١) انظر مقدمة تحقيق كتاب الرعاية للمحاسبي، القاهرة، بدون تاريخ، ص ١٣، ١٤.

(١٢) ابن قنفذ : مصدر سابق، ص١٩.

(١٣) التادلي: مصدر سابق، ص ١٨٧.

(١٤) المصدر السابق، ص ٢٧٨.

(١٥) التادلي :مصدر سابق، ص٣٦٢.

(١٦) المصدر السابق، ص ٣٧٥ .

(١٧) التميمي: مصدر سابق، ص ١٦؛ التادلي: مصدر سابق، صفحات ٣٣٠ ،٣٨٠ ،٤٢٨ ، ٤٣٨.

كما تأثر صوفية المغرب الأقصي بكتاب أبي طالب المكي المتوفي عام ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م بعنوان " قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلي مقام التوحيد ". وهذا الكتاب من أمهات كتب التصوف والتعليم الصوفي التي لا يستغني عنها في تربية المريد(١٨) لذلك كان الشيخ الصوفي أبو إبراهيم بن إسماعيل بن وجماتن الرجراجي – وهو من أهل أدار من بلد رجراجة وبها توفي عام ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م – يقوم بقراءة هذا الكتاب علي مريديه، لأن المكي وضع أسس المنهج الصوفي وشروطه وطريقة تنظيم حياة السالكين والمريدين(١٩).

وبقراءة تراجم متصوفة المغرب الأقصي يتضح لنا مدي تأثرهم بآراء المكي، فتفيد هذه التراجم في توضيح مدي حرص هؤلاء علي مجاهدة النفس، والمجاهدة عند المكي هي الخلوة والصمت والسهر والجوع(٢٠). وقد سلك العديد من صوفية المغرب الأقصي هذا الطريق من المجاهدة(٢١).

كما يعد كتاب " إحياء علوم الدين " لأبي حامد الغزالي المتوفي عام ٥٠٥هـ/ ١١١١م من أهم المؤلفات التي انتشرت في المغرب الأقصي ولقيت رواجًا لدي جماهيره من المتصوفة والصالحين فمؤلفه من أعظم مفكري الإسلام، وأنه جعل التصوف جزءًا من الدين ومقبولًا لدي علمائه فهو الذي جعل للتصوف مكانة لدي أهل السنة (٢٢).

---

(١٨) التادلي: مصدر سابق، ص ٣٥٤؛ انظر مقدمة تحقيق كتاب قوت القلوب للدكتور عبدالمنعم الحفني، دار الرشاد، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩١، ص ٥١. عن أبي طالب المكي انظر: ابن خلكان: مصدر سابق، جـ ٤، ص ٣٠٣ .

(١٩) انظر كتاب المكي: قوت القلوب، مصدر سابق.

(٢٠) المكي: قوت القلوب، جـ ٢ ، ص ٣٤٠.

(٢١) التادلي: مصدر سابق، تراجم رقم: ١٢، ٢٢، ٢٤، ٣٣، ٥٧، ٥٩، ٧٣، ٨٤، ٨٧، ١١٩، ١٣١، ١٣٢، ٢٤٥.

(٢٢) الذهبي: العبر في خبر من غبر، تحقيق صلاح الدين المنجد، الكويت، ١٩٦٣، ج٤، ص ١٠؛ جولد تسيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمه محمد يوسف موسي وآخرون، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٥٩، ص ١٧٩.

Macdonald: Art Al Ghazeli in Encyclopedia of Islam.

وقد تعلق صوفية المغرب الأقصي بهذا الكتاب؛ لأنه موافق للكتاب والسنة، لذلك اعتكف الصوفي علي بن إسماعيل بن محمد بن عبدالله بن حرزهم – من أهل فاس، والمتوفي عام ٥٥٩هـ/ ١١٦٣م – علي قراءته في بيته مدة عام(٢٣)، والراجح أن يكون علي بن إسماعيل بن حرزهم قد قرأ هذا الكتاب علي يد عمه صالح بن محمد بن حرزهم، الذي رحل إلي المشرق، وانقطع مدة بالشام، فلقي أبا حامد الغزالي(٢٤). وتعلق أيضا أبو مدين بهذا الكتاب وكان يقول: " نظرت في كتب التصوف فما رأيت مثل الإحياء للغزالي "(٢٥)، لذلك لم يكن غريبًا أن يكون لكتاب الإحياء سوقًا رائجة في أسواق الكتب بالمغرب الأقصى(٢٦)، ويقوم بإقرائه عدد من صوفية هذه البلاد(٢٧).

علي أية حال كان كتاب الإحياء من أهم كتب صوفية المشرق التي أثرت في صوفية المغرب الأقصى، فاستعملوا ما فيه من الأذكار والأدعية والأوراد(٢٨).

كما ذاع بين صوفية المغرب الأقصي " كتاب الرسالة القشيرية في التصوف "، لأبي القاسم القشيري المتوفي عام ٤٦٥هـ/ ١٠٧٣م، يؤكد ذلك

---

(٢٣) التادلي: مصدر سابق، ص ١٦٨، ١٦٩.

(٢٤) ابن القاضي: جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، الرباط، ١٩٧٣، ج٢، ص ٣٥٨، ٣٥٩.

(٢٥) التادلي: مصدر سابق، ص ٢١٤؛ الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق عادل نويهض، بيروت، بدون تاريخ، ص ٢٣؛ المقري: مصدر سابق، ج٧، ص ١٣٧.

(٢٦) التادلي: مصدر سابق، ص ١٧٩.

(٢٧) التميمي: مصدر سابق، ص ١١٧، ١٧٢، ١٩٧.

(٢٨) التادلي: مصدر سابق، ص ٢٧٠؛ العباس بن إبراهيم: الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، الرباط، ١٩٧٣، ج٤، ص ١٢٠.

أن أبا مدين كانت له مجالس للوعظ يعلم فيها، فتخرج علي يديه جماعة كثيرة من العلماء والمحدثين وأرباب الأحوال(٢٩)، وكان يتناول في مجالسه "رسالة القشيري في التصوف"(٣٠). كما درس هذا الكتاب عدد من الصوفية(٣١).

وهو كتاب ألفه الإمام القشيري كما يقول في مقدمة كتابه " إلي جماعة الصوفية ببلدان الإسلام في سنة ٤٣٧هـ/ ١٠٤٥م "، وقد ألفه حينما رأي في صوفية عصره أنواعًا من الانحراف عن خط التصوف الصادق، ألفه ليكون مقياسًا صحيحًا لمن أراد أن يسير علي الطريق المستقيم(٣٢).

كما تأثر متصوفة المغرب الأقصي بالتصوف المشرقي عن طريق رحيل عدد منهم للمشرق للاطلاع علي مؤلفات التصوف، والالتقاء بصوفيته. فقد رحل عدد من متصوفة المغرب الأقصي إلي مدينة مكة، ومنهم أبو محمد عبدالله بن موسي الجزولي من سجلماسة، وبها توفي عام ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م(٣٣)، ومنهم أيضًا أبو عمران موسي الصاريوي الذي جاور بمكة(٣٤)، واطلعوا علي بعض مؤلفات صوفية المشرق أمثال مؤلفات أبي بكر المطوعي في التصوف التي كانت موجودة في مكة التي عاش بها(٣٥).

---

(٢٩) ابن مريم: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، مراجعة ابن شنب، الجزائر، ١٩٠٨، ص ١٠٨؛ المقري: مصدر سابق، ج٧، ص ١٣٧.

(٣٠) الغبريني: مصدر سابق، ص ٢٦؛ ابن قنفذ: مصدر سابق، ص ١٧.

(٣١) التميمي: مصدر سابق، ص ٦٠.

(٣٢) القشيري: الرسالة القشيرية، تحقيق عبدالحليم محمود وآخرين، القاهرة، الطبعة الأولي ١٩٩٦، ج١، ص ١٨؛ عبدالحليم محمود: أبو مدين الغوث، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٣٨، ٣٩.

(٣٣) التادلي: مصدر سابق، ص ٢٧٧.

(٣٤) المصدر السابق، ص ٢٨٨.

(٣٥) المصدر السابق، ص ٨٣.

وهناك من متصوفة المغرب الأقصي من رحل إلي المشرق، لكن لم تحدد لنا المصادر الوجهة التي اتجهوا إليها واستقروا فيها هناك. منهم الصوفي أبو محمد يرزجان بن محمد الجزولي[٣٦]، وأبو عبدالله محمد البردعي الأسود السجلماسي[٣٧]. علي أية حال سواء اتجهوا إلي بلاد الحجاز أم الشام أم العراق أم أقاموا في مصر، فقد اطلعوا علي مؤلفات صوفية المشرق التي ذاعت شهرتها مثل الرعاية لحقوق الله، وقوت القلوب، والإحياء، وغيرها من المؤلفات.

ولم يقتصر الأمر علي سفر صوفية المغرب إلي المشرق بل حدث العكس، إذ أدت العلاقات الوثيقة التي ربطت بين المتصوفة المغاربة وإخوانهم من المشارقة إلي قيام الأخيرين بزيارة متصوفة المغرب الأقصىٰ. فيذكر لنا التادلي أن طائفة من متصوفة المشرق وصلوا إلي بلد أزمور[٣٨] لزيارة أبي عبدالله بن أبي أمغار، وأبي شعيب، وأبي عيسي وزجيج بن ولوون الصنهاجي، فوجدوهم قد ماتوا[٣٩].

ويتضح التأثير المشرقي أيضا في انتقال طريقة الملامتية في التصوف إلي المغرب الأقصىٰ، وتمسك بعض صوفيته بها، وهي طريقة صوفية ظهرت في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي بمدينة نيسابور[٤٠]. كما توجد طوائف منهم في خراسان والعراق[٤١]، يؤكد ذلك

---

(٣٦) المصدر السابق، ص ٢٦٧.

(٣٧) المصدر السابق، ص ٢٧٨.

(٣٨) أزمور مدينة قديمة علي ساحل المحيط الأطلنطي عند مصب وادي أم الربيع، انظر: مارمول: أفريقيا، ترجمه محمد حجي وآخرون، الرباط، ١٩٨٩، ج٢، ص ٨٧، ٨٨.

(٣٩) التشوف إلي رجال التصوف، ص ١٨٥.

(٤٠) عبدالقادر محمود: الفلسفة الصوفية في الإسلام، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٦، ص ٤١١.

(٤١) السهروردي: عوارف المعارف، القاهرة، ١٩٧٣، ص ٧٤.

أن الصوفي أبا الحسن علي بن إسماعيل بن محمد بن حرزهم الفاسي المتوفي عام ٥٥٩هـ/١١٦٣م كان سالكًا في التصوف سبيل أهل الملامتية(٤٢).ويقوم تصوف هذه الطائفة علي أساس أن يخفوا أمرهم علي الناس في العبادة وفي الإقبال علي الله، ويرون أن الإخلاص يتوافر بذلك في صورة أكمل(٤٣).

علي أية حال فإن التصوف الذي ولد وترعرع في المشرق شأنه شأن جميع الفرق والمذاهب الدينية، قد نفذ إلي المغرب الأقصىٰ، وأثر في دفع حركة التصوف في المجتمع خاصة في عصر الموحدين، ساهم في ذلك أن أرضه كانت أكثر مواتاة من غيرها وكانت ميدانًا خصبًا لانتشاره، ويرجع ذلك إلي عدة عوامل داخلية.

ثانيًا – العوامل الداخلية:

وتتعدد العوامل الداخلية التي أثرت في نشأة وازدهار التصوف في المغرب الأقصىٰ.

العامل الأول: الطبيعة الدينية للدولة الموحدية. الجدير بالذكر أن المنبع الذي استمد منه الموحدون هو تعاليم الإمام الغزالي التي تدعو إلي المحافظة علي تعاليم الإسلام الأساسية، بالإضافة إلي أنه جعل التصوف جزءًا من الدين، ومقبولًا لدي علمائه(٤٤)، كما إن الدعوة الموحدية عمقت الشعور

---

(٤٢) التادلي: مصدر سابق، ص ١٦٩.

(٤٣) ابن عربي: الفتوحات المكية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧، ج١١، ص ٣٤٠، ٣٤١؛ السهروردي: مصدر سابق، ص ٧٢؛ عبدالحليم محمود: مرجع سابق، ص ٣٢.

(٤٤) جورج قنواتي: التصوف، مقال في كتاب تراث الإسلام، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١١، القسم الثاني، الكويت، ١٩٧٨، ص ٢٤٦.

الديني لدي سكان المغرب الأقصى، وأسهمت في ظهور أقطاب التصوف وزيادة أعداد المتصوفة في عصرهم.

العامل الثاني: السيرة الذاتية لحكام الدولة الموحدية التي شجعت علي نمو حركة التصوف في المجتمع ودفعها إلي الأمام. فقد كانوا القدوة لرعاياهم في الزهد والتقشف وشدة التدين والعكوف علي العبادة، فنجد أن المهدي محمد بن تومرت كان فقيهًا فاضلًا محدثًا عارفًا بأصول الدين والفقه، ورعًا ناسكًا(٤٥)، وخليفته عبدالمؤمن بن علي كان يعظم أمر الدين ويقويه، ويلزم الناس في سائر بلاده بالصلاة(٤٦) وكان الغالب علي مجلسه أهل العلم والدين، وإليهم المرجع والكلام معهم(٤٧). كما كان أبو يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن حافظًا للقرآن، كما كان يحفظ أحد الصحيحين إما البخاري أو مسلم(٤٨)، واشتهر بزهده وورعه وعدله(٤٩). ولم تختلف سيرة يعقوب المنصور عن أسلافه بل تفوق عليهم في تدينه، فقد أظهر الزهد والتقشف وخشونة المأكل والملبس حتي انتشر في أيامه الصالحون وعظمت مكانتهم، وكان يطلبهم ويستدعيهم من أنحاء دولته ويكتب إليهم يسألهم الدعاء، ويصل منهم من يقبل صلته بالصلات الجزيلة(٥٠).

---

(٤٥) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق د. حسين نصار، القاهرة، ١٩٨٣، ج٢٤، ص ٢٧٧.

(٤٦) المصدر السابق والجزء، ص ٣١٨.

(٤٧) المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، حققه محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٤٩، ص ٢٠٠، ٢٠١؛ النويري: مصدر سابق، ج٢٤، ص ٣١٨.

(٤٨) المراكشي: مصدر سابق، ص ٢٣٧.

(٤٩) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، بيروت، ١٩٦٤، ص ٢٣٣، ٢٣٤؛ النويري: مصدر سابق، ج٢٤، ص ٣٢٧.

(٥٠) المراكشي: مصدر سابق، ص ٢٣٨؛ النويري: مصدر سابق، ج٢٤، ص ٣٢٨.

العامل الثالث: انتشار الربط(٥١) في كل أنحاء المغرب الأقصىٰ؛ مما كان له أبلغ الأثر في نمو التصوف. فقد وفرت الربط مكانًا للعكوف علي العبادة والمجاهدات، ومكانًا للتعليم الصوفي، الذي يسعي إليه المريدون السالكون لهذا الطريق. وكانت الشواطئ تعج بالرباطات(٥٢). وكان ثمة رباطات علي شاطئ المغرب الأقصي بعضها في نكور(٥٣) وأرزله. وقد قامت برد غارات قراصنة الشمال، وبعضها في سلا(٥٤) لتيسير أسباب الغارة علي خوارج برغواطة(٥٥). كما يوجد رباط علي ساحل البحر في وادي ماسين وله مرسي مأمونة، وعليه حصنان وهو رباط حسن مقصود يتبرك به(٥٦). كما كان موضع مدينة أصيلة رباطًا(٥٧).

لكن مع رسوخ الإسلام في بلاد المغرب والقضاء علي البدع والمذاهب المنحرفة واختفاء التهديدات الخارجية في ذلك الحين، اختفت الوظيفة الحربية للرباط، فلم تكن هناك حاجة للرباط كضرورة عسكرية. حدث هذا التطور في أواخر عهد المرابطين، وأصبحت للأربطة وظيفة دينية فقط، وظلت عامرة يقصدها الزهاد والمتصوفة، وأصبحت مقامات للعباد المنقطعين للعبادة والزهد والمجاهدات الصوفية(٥٨).

---

(٥١) عن موقع الأربطة في المغرب الأقصىٰ، انظر الخرائط التي الحقها الأستاذ أحمد التوفيق بتحقيقه لكتاب التشوف إلي رجال التصوف.

(٥٢) دائرة المعارف الإسلامية، مادة رباط.

Bel: Op.cit p.16.

(٥٣) البكري: المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، الجزائر، ١٨٥٧، ص ٩١.

(٥٤) سلا مدينة قديمة في غربها المحيط الأطلنطي، وفي جنوبها النهر وهي متوسطة بين بلاد المغرب الأقصىٰ، كثيرة الرخاء، انظر أبي الفداء: تقويم البلدان، باريس، ١٨٢٠، ص ١٣٠، ١٣١.

(٥٥) البكري: مصدر سابق، ص ٩٠؛ دائرة المعارف الإسلامية، مادة رباط.

(٥٦) البكري: مصدر سابق، ص ٨٠.

(٥٧) المصدر السابق، ص ١١٢.

58) (Bel: Op.cit p.107.

هكذا شد متصوفة المغرب الأقصي الرحال إلي الأربطة سواء أكانت في المناطق الساحلية أم المناطق الداخلية. وكما أوضحنا فإن الاربطة الساحلية أصبحت ذات مهمة دينية وليست حربية في الفترة الزمنية للدراسة. ومن الأربطة الساحلية التي أقام بها الزهاد والمتصوفة رباط مدينة سلا، وكان يقع علي ساحل المحيط الأطلنطي(٥٩). وفي مدينة أزمور هناك رباط تيطنفطر(٦٠) وهذا الرباط من أقدم الرباطات بالمغرب الأقصي ووجوده سابق علي العهد المرابطي. وهو معروف الموقع إلي اليوم، إذ يقع علي بعد بضعة أميال جنوب مدينة الجديدة علي شاطئ المحيط(٦١)، ورباط آخر يسمي رباط أييسين وهو يعني رباط الخيل(٦٢). وفي مدينة أسفي(٦٣) رباطان، الأول يسمي رباط تامرنوت وهو يقع قرب البحر بأسفي(٦٤) والرباط الثاني يسمي باسم المدينة رباط أسفي(٦٥). كما يوجد رباط ساحلي آخر يقع بالقرب من ساحل أنفا(٦٦) يسمي رباط تامنغاطت(٦٧).

---

(٥٩) التادلي: مصدر سابق، ص ١٥٧.

(٦٠) المصدر السابق، ص ٢٠٩.

(٦١) انظر هامش رقم ٤٦٢ لمحقق كتاب التشوف، ص ٢٠٩.

(٦٢) التادلي: مصدر سابق، ص ٤١٤.

(٦٣) أسفي مرسي في أقصي المغرب، وهو آخر مرسي تبلغه المراكب من عند الأندلس إلي ناحية الجنوب، ومن مرسي أسفي إلي مرسي ماست مائة وخمسون ميلاً، الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق د. إحسان عباس، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٨٠، ص ٥٧.

(٦٤) التادلي: مصدر سابق، ص ٤٣٣.

(٦٥) المصدر السابق، ص ٤٣٩.

(٦٦) ساحل أنفا بقرب وادي أم الربيع كثير الزرع والمواشي والإبل والبقر والغنم، الحميري: مصدر سابق، ص ٣٥.

(٦٧) التادلي: مصدر سابق، ص ١٦٦.

أما الأربطة التي أقيمت في داخل البلاد بعيدًا عن السواحل فهي كثيرة، ومن أهمها رباط شاكر الذي يقع علي ضفة نهر تانسيفت ومحله اليوم قرية تسمي سيدي شيكرة، وكان هذا الرباط مقصد للمريدين في طلب شيوخ التصوف والصالحين(٦٨).

أما مدينة فاس فقد أقيم فيها رباطان، الأول يقع بالقرب من فاس، انقطع فيه الصوفية للعبادة(٦٩)، والرباط الآخر يسمي رباط زرهون(٧٠) خارج باب ألجيسة(٧١).

كما وجدت عدة أربطة في مدينة مراكش، منها رباط تاسماطت(٧٢)، ورباط أوجدام في بلد ركونة من عمالة مراكش(٧٣)، وأخيرًا رباط الغار الذي يقع خارج سور مراكش خارج باب أغمات(٧٤). وفي منطقة هسكورة(٧٥) هناك رباطان هما رباط حكم(٧٦) ورباط ملولاسن(٧٧). وفي

---

(٦٨) المصدر السابق، ص ١٠٣، ١٧٢.

(٦٩) المصدر السابق، صفحات ٥١، ٣٦٥، ٣٩٤، ٤٠٢.

(٧٠) المصدر السابق، ص ٣٦٨.

(٧١) التميمي: مصدر سابق، ص ١٦٨.

(٧٢) التادلي: مصدر سابق، ص ١٦٤، ٢٣٥.

(٧٣) المصدر السابق، ص ٢٢٧؛ العباس بن إبراهيم: مصدر سابق، ج٣، ص ١٠١.

(٧٤) التادلي: مصدر سابق، ص ٣١٢، ٣٤٣.

(٧٥) إقليم هسكورة يمتد شمالاً علي حدود دكالة، وفي جنوبه بعض فروع الأطلس الكبير، ويمتد غربًا إلي نهر أنماي، وشرقًا إلي وادي العبيد الذي يفصل الإقليم عن إقليم تادلا ووادي أم الربيع ويقع علي بعد عشرين فرسخًا من جهة الغرب من مدينة مراكش، انظر: مارمول: مصدر سابق، ج٢، ص ١٠٦.

(٧٦) التادلي: مصدر سابق، ص ١٥٢.

(٧٧) المصدر السابق، ص ٣٨٨.

منطقة دكالة(٧٨) يوجد رباط تانوتن ظهير ويعني بئر الحمام(٧٩). وفي مدينة نفيس(٨٠) هناك رباط عقبة علي وادي نفيس(٨١). أما سجلماسة(٨٢) ففيها رباط أيندور الذي يقع خارج مدينة سجلماسة(٨٣).

وقد أدي انتشار الأربطة إلي إقبال أعداد كبيرة من أفراد المجتمع علي الدخول في سلك التصوف خصوصًا مع وجود الأربطة التي هيأت لهم مكانًا للانقطاع عن المجتمع ومراجعة النفس ومحاسبتها، وكما يقول أبو مدين: " من علامات صدق المريد فراره عن الخلق "(٨٤).

العامل الرابع: قيام بعض شيوخ التصوف المغربي بوضع مؤلفات في التصوف حتي تكون هذه المؤلفات في متناول إخوانهم في الطريق، وتوضح لهم المبادئ الجوهرية لطريق التصوف، مثلما وضع صوفية المشرق العديد من المؤلفات.

---

(٧٨) منطقة دكالة تمتد من الشمال إلي الجنوب أربعة وعشرين فرسخًا، ومن الشرق إلي الغرب ثلاثون فرسخًا يفصل نهر تانسيفت الإقليم عن بلاد حاحة، ونهر أم الربيع يفصلها عن تامسنا، انظر: الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، بدون تاريخ، ج١، ص ٢٤١؛ مارمول: مصدر سابق، ج٢، ص ٧٠؛ الحسن الوزان: وصف أفريقيا، ص ١٦١.

(٧٩) التادلي: مصدر سابق، ص ٢٢٥؛ العباس بن إبراهيم: مصدر سابق، ج٣، ص ٢٥٠.

(٨٠) نفيس مدينة قديمة أزلية تلي السوس الأقصىٰ، ولها نهر ينزل من جبل درن. البكري: مصدر سابق، ص ١٦٠.

(٨١) التادلي: مصدر سابق، ص ٣١٥، ٤٠١.

(٨٢) سجلماسة مدينة بنيت سنة ١٤٠هـ/ ٧٥٧م وهي مدينة حولها أرياض كثيرة وهي علي نهرين، كثيرة النخل والأعناب، وهي أول الصحراء، ومنها يدخل إلي بلاد السودان إلي غانة مسيرة شهرين. البكري: مصدر سابق، ص ١٤٨، ١٤٩.

(٨٣) التادلي: مصدر سابق، ص ٤١٢.

(٨٤) ابن عربي: مصدر سابق، ج٤، ص ١٠٥.

ويعد كتاب "محاسن المجالس" لأبي العباس أحمد بن محمد بن عطاءالله الصنهاجي، المعروف بابن العريف والمتوفي سنة ٥٣٦هـ/ ١١٤١م من أهم المؤلفات الصوفية(٨٥).لقد وضع ابن العريف في كتابه منهجًا صوفيًا، بأن وضع الأسس والقواعد التي تنظم حياة السالكين والمريدين الذين ينتسبون إلي التصوف ويحدد لهم في كتابه ما يكلفون به من واجبات وأعمال تعينهم علي مجاهدة أهوائهم وتهذيب نفوسهم. ويهتم المنهج الصوفي عند ابن العريف بالجانب العملي من التصوف(٨٦).

كما يعد كتاب " أنس الوحيد ونزهة المريد " للعارف بالله أبي مدين المتوفي عام ٥٩٤هـ/ ١١٩٧م من أهم كتب التصوف المغربي، وهذا الكتاب موجه إلي المريد السالك لطريق التصوف، ينبهه إلي قواعد السلوك التي ينبغي مراعاتها. والكتاب عبارة عن جمل ذات ألفاظ قليلة تتضمن المعاني الكثيرة(٨٧).

هكذا انتشر التصوف الوافد من المشرق في بلاد المغرب الأقصى، وبدأ المتصوفة المغاربة يلعبون دورًا في حياة المجتمع، وهو ما سنفصله في صفحات البحث التالية.

---

(٨٥) الن عربي :مصدر سابق، ج٢، ص ٩٢؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، نشر محمد يوسف نجم، فيسبادن، ١٩٧١، ج٨، ص ١٣٣؛ حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، استانبول، ١٩٤٣، ج٢، ص ١٦٠٩.

(٨٦) ابن العريف: محاسن المجالس، نشر أسين بلاسيوس، باريس، ١٩٣٣، ص ٧.

(٨٧) انظر أحمد بن عبدالقادر الذي قام بشرح حكم أبي مدين في شرحه المسمى: البيان والمزيد المشتمل علي معاني التنزيه وحقائق التوحيد علي أنس الوحيد ونزهة المريد، القاهرة، ١٢٩٧هـ.

أولًا- دور المتصوفة في الحياة السياسية:

١- دور متصوفة المغرب الأقصي في معارضة السياسات الجائرة:

تذكر المصادر المناقبية بعض الوقفات الحاسمة لمتصوفة المغرب الأقصي ضد السلاطين وعمالهم، وذلك لدفع ظلمهم وقراراتهم المتعسفة. فلم يخشوا سطوتهم، وأعلنوا ذلك صراحة وعلي الملأ فلا خوف إلا من الله سبحانه وتعالى. فالصوفي أبو مهدي وين السلامة بن جلداسن الدكالي المتوفي عام ٥٦٠هـ/ ١١٦٤م كان لا يخشي السلطان – يقصد الخليفة عبدالمؤمن بن علي المعلصر لهذا الصوفي ـ إذا تحدث، ولا يخشي أن يصل كلامه إليه، فكان يجهر بمعارضة السلطان(٨٨).

كما تصدي الصوفي أبو عبدالله محمد بن اسماعيل الهواري المتوفي عام ٥٨١هـ/ ١١٨١م، لجور عامل أغمات وريكة الذي كتب أحباس الجامع في زمامه(٨٩).

كما هرع جماعة من أهل أدار من بلد رجراجة إلي أبي إبراهيم إسماعيل بن وجماتن المتوفي عام ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م، فشكوا له جور العامل وانتهاكه حرمة الله، فغضب أشد الغضب ولم يسكت علي هذا الجور، وانتهز فرصة صلاة الجمعة في الجامع، فلما انتهت الصلاة قام بعظة الحاضرين والعامل بينهم، فتكلم في حقه بكلامٍ خاف منه الناس علي أنفسهم، فخرجوا من المسجد كلهم، وخرج العاملً أيضًا، وانتظر خارجه حتي خرج أبو إبراهيم فقبض عليه(٩٠). ولم يخش هذا الصوفي العامل، وأغلظ له في القول وهو

---

(٨٨) التادلي: مصدر سابق، ص ٢٦٣.

(٨٩) التادلي :مصدر سابق، ص ٢٧٠؛ العباس بن إبراهيم: مصدر سابق، ج٤، ص ١٢٠.

(٩٠) التادلي: مصدر سابق، ص ٣٥٤.

حاضر معرضًا نفسه للعقاب والحبس، حتي عرف العامل مكانته فتغافل عن أمره ولم يتعرض له بعد ذلك بشيء(٩١).

وهناك حلات أخري عارض فيها رجال التصوف سياسة العمال الجائرين حين شكا الناس إليهم هذه السياسة(٩٢).

وبالإضافة إلي معارضة المتصوفة السياسات الجائرة للسلاطين أو لعمالهم فقد استغلوا مكانتهم داخل مجتمع المغرب الأقصي وأسدوا إلي الناس الكثير من الخدمات حين وقفوا في وجه استبداد السلاطين وعمالهم، وتشفعوا لرعاياهم واستجيبت شفاعتهم.

٢- دور المتصوفة في الشفاعة للرعية عند الحكام:

قام المتصوفة في هذا المجال بدورٍ ملحوظ، والأمثلة علي ذلك كثيرة، منها تشفع الصوفي أبي شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجي الأزموري المتوفي عام ٥٦١هـ/ ١١٦٥م، في نساء علي بن يوسف المرابطي، ونساء أولاده عند الخليفة الموحدي عبدالمؤمن بن علي (٥٢٤-٥٥٨هـ/ ١١٣٠-١١٦٣م)، وقبل عبدالمؤمن شفاعته، وأمر بإطلاق سراحهم، لارتفاع مكانته عند الخليفة الموحدي(٩٣). كما تشفع هذا الصوفي أيضًا في جماعة من أهل أزمور، أراد الوالي قتلهم، فعرف الوالي مكانته فخشيه وقبل شفاعته. ولذلك كان أهل أزمور يهرعون إليه لرد أي ابتلاء من قبل الوالي(٩٤).

---

(٩١) المصدر السابق، ص ٣٥٥، ٣٥٦.

(٩٢) المصدر السابق، ص ٤٢١.

(٩٣) الصومعي: المعزي في أخبار ومناقب الشيخ أبي يعزي، مخطوطة بدار الكتب المصرية، الرمز تاريخ تيمور ١٢٤٩، ميكروفيلم ٢٧٧٠٣٢، ورقة ١٠، ١١.

(٩٤) التادلي: مصدر سابق، ص ١٨٨.

كما تشفع أبو الأمان بن مشو الرفروفي – من بلد تادلا والمتوفي عام ٦١٥هـ/ ١٢١٨م ـ لقوم أخذ منهم إسحاق بن يحيي من عمال الخليفة الناصر الموحدي (٥٩٥-٦١١هـ/ ١١٩٩-١٢١٤م) دوابهم، حتي يدفعوا له مبلغ مائتي دينار، فشكوا إلي أبي الأمان، فكتب كتابًا بالشفاعة لهم، فقام العامل برد دوابهم(٩٥).

علي أية حال لقد استجاب الحكام لكثير من الشفاعات التي قام بها المتصوفة بفضل المكانة الاجتماعية الكبيرة لهم، والتي تمثلت في التفاف الرعية حولهم، وتقديرهم إياهم . ولذلك كان غريبًا أن يرفض هؤلاء المتصوفة المناصب الدينية التي عرضت عليهم.

٣- العزوف عن المشاركة في المناصب الدينية للدولة:

جدير بالذكر أن متصوفة المغرب الأقصي في الفترة الزمنية للدراسة، قد عزفوا عن المشاركة في المناصب الدينية، حين رفضوا تولي منصب القضاء، ومنصب الحسبة.

وإذا كان الصلاح وشدة الورع والخوف من الله تعالي أهم سمات من يتولي منصب القضاء، فإن هذه السمات كانت تسمح لمعظم متصوفة المغرب الأقصي بأن يرشحوا لتولي هذا المنصب. وكانت سلطة تعيين قضاة المدن في أيدي سلطة قاضي القضاة ومقره مراكش، يوضح ذلك أن قاضي القضاة أبا يوسف حجاج بن يوسف التجيبي المتوفي عام ٥٧٢هـ / ١١٧٦م قد رشح الصوفي أبا محمد عبدالعزيز بن محمد الباغاتي لمنصب قضاء مدينة أغمات(٩٦). واتباعًا لسياسة الزهد في الدنيا ومناصبها، وخوفًا من تبعات المنصب أمام الله عز وجل، ذهب هذا الصوفي إلي مراكش، وطلب من قاضي

(٩٥) المصدر السابق، ص ٢٤٢.

(٩٦) المصدر السابق، ص ٢٠٥؛ العباس بن إبراهيم: مصدر سابق، ج٨، ص ٤٠١.

القضاة أن يعفيه من ولاية القضاء. لكن قاضي القضاة تمسك به لفضله وورعه، لكنه صمم علي موقفه في رفض تولي خطة القضاء، وقال له : " والله لو نشرت بالمنشار من قرني إلي قدمي ما قبلت هذه الولاية ". إزاء هذا الموقف قام قاضي القضاه بإعفائه من هذه الولاية(٩٧).

ومن المناصب الدينية التي عزف المتصوفة أيضًا عن توليها وظيفة الحسبة، وهي وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي هو فرض علي القائم بأمور المسلمين. ولصاحبها النظر والحكم في آنٍ واحد، وهي بذلك خادمة لمنصب القضاء(٩٨)، ومندرجة تحت مسئوليات القاضي الذي يقوم بتعيين المحتسب. فالقاضي أبو يوسف حجاج بن يوسف بعث إلي أبي عبدالملك مروان اللمتوني العابد المتوفي عام ٥٧١هـ/ ١١٧٥م، أن يصل إليه من مدينة فاس ليقدمه علي وظيفة الحسبة بمدينة مراكش(٩٩) لكنه رفض أن يتولي خطة الحسبة لرغبته في سلوك طريق التصوف(١٠٠).

وكانت هناك محاولة لإكراه الصوفي أبي يعقوب يوسف بن علي المؤذن المتوفي عام ٥٥٧هـ/ ١١٦١م، علي ولاية الحسبة في مدينة داي من بلاد تادلا، لما شهر به من صلاح وورع وكثرة البكاء والاجتهاد والعبادة، لكنه رفض هذه الولاية وأعفي منها(١٠١).

لقد كان موقف هؤلاء المتصوفة بعدم المشاركة في شغل المناصب الدينية موقفًا سلبيًا، فلو تولوا هذه المناصب لأسدوا للرعية الكثير من

---

(٩٧) التادلي: مصدر سابق، ص ٢٠٥؛ العباس بن إبراهيم: مصدر سابق، ج٨، ص ٤٠١.

(٩٨) ابن خلدون: المقدمة، بيروت، ١٩٨٦، ص ٢٢٦، ٢٢٧.

(٩٩) التادلي: مصدر سابق، ص ٢٣٨؛ ابن القاضي: مصدر سابق، ج١، ص ٣٣٤؛ العباس بن إبراهيم: مصدر سابق، ج٧، ص ٢٤٨، ٢٤٩.

(١٠٠) التادلي: مصدر سابق، ص ٢٣٨.

(١٠١) المصدر السابق، ص ١٦٨.

الخدمات لورعهم وتقواهم، لكنهم آثروا البعد ورفضوا تولي هذه المناصب خوفًا من الوقوع في النفاق، وفقدان القدرة علي قول الحق ومعارضة الباطل. كما أنهم نظروا إلي أن هذه المناصب يتكالب عليها طلاب الدنيا، والأجدر بأصحاب الذكر والطريق الابتعاد عنها. كما إن رفض تولي هذه المناصب يعد حرصًا علي عدم إقامة أي علاقة مع السلطة بإيثار الابتعاد عنها. وإذا كانوا قد رفضوا المشاركة في شئون الحكم، فقد شاركوا في حملات الجهاد ضد الأسبان.

٤- المتصوفة والمشاركة في الجهاد ضد الأسبان:

شارك متصوفة المغرب الأقصي في أهم أحداث عصرهم العسكرية حين عبروا للأندلس للجهاد ضد الأسبان. وقد أبرزت كتب المناقب مشاركة بعض المتصوفة في معركتين من أهم معارك الجهاد في بلاد الأندلس، وهما معركتا الأرك والعقاب.

أ- معركة الأرك:

وتعد معركة الأرك Alarc[١٠٢] التي دارت رحاها في التاسع من شعبان سنة ٥٩١هـ الثامن من يوليه ١١٩٤م، من المعارك الحاسمة في تاريخ الإسلام في الأندلس، وهي معركة شارك فيها متصوفة المغرب الأقصي مع المتطوعين، في عهد يعقوب المنصور (٥٨٠-٥٩٥هـ/ ١١٨٤-١١٩٩م)،

(١٠٢) الأرك هو اسم سهل واسع وراء جبل الشارات، وكانت هذه الجبال قد غدت علي عهد الموحدين حاجزًا بين الأندلس المسلمة ودولة قشتالة النصرانية. وبجوار سهل الأرك قامت قلعة رباح الشهيرة، انظر: مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، حققه د. سهيل زكار، وعبد القادر زمامة، الدار البيضاء، ١٩٧٩، هامش رقم ٥، ص ١٥٩.

الذي أملت عليه الأحداث العبور إلي الأندلس للمرة الثانية[١٠٣] بعد توالي كتب مسلمي الأندلس، وقادة الثغور فيه باشتداد الضغط النصراني وثقل وطأته بتفاقم غاراته. فقد بعث ألفونسو الثامن ملك قشتالة بجيوشه في حملة تخريبية إلي أراضي الأندلس[١٠٤].

وأقبلت الحشود من كل صوب وكانت رغبة المجاهدين في العبور إلي الأندلس كبيرة وخصوصًا المتطوعة من فقهاء المغرب وصلحائه من الصوفية[١٠٥] الذين أسهموا في هذه المعركة الحاسمة التي ثبتت حدود الإسلام في الأندلس. والتي عقد فيها يعقوب المنصور للحاج الصالح أبي خرز يخلف الأوربي علي المتطوعة، وكانت رايتهم خضراء[١٠٦]. ويمدنا التادلي بترجمة لأحد شيوخ التصوف الذين شاركوا في هذه المعركة، وهو أبو محمد عبدالواحد بن تومرت الهسكوري الأسود، الذي توجه مع جيوش

(١٠٣) عبر يعقوب المنصور إلي الأندلس في غزوته الأولي سنة ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م بعد سقوط شلب في يد بيدوبين هنريكنر ملك البرتغال، وكانت من أكبر موانئ غرب الأندلس. وخرج يعقوب المنصور وحقق الانتصارات واستعاد شلب وعددًا من الحصون سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩١م ثم شغلته شواغل أخري وألم به مرض فعقد مع النصاري صلحًا لمدة خمس سنوات . انظر: المراكشي: مصدر سابق، ص ٢٨٠؛ ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، ١٩٨٣، ج٦، ص ٥١١، ٥١٢؛ ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، الدار البيضاء، ١٩٨٥، ص ٢٠٣ إلي ٢٠٦؛ محمد عبدالله عنان: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القسم الثاني عصر الموحدين، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٩٠، ص ١٩٧.

(١٠٤) المراكشي: مصدر سابق، ص ٢٨٢؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تعليق محمد الهاشمي الفيلالي، الرباط، ١٩٣٦، ص ٢٢٠؛ النويري: مصدر سابق، ج٢٤، ص ٣٣٣، ٣٣٤.

(١٠٥) ابن أبي زرع: مصدر سابق، ص ٢٢٢.

(١٠٦) المصدر السابق، ص ٢٢٥، ٢٢٦.

المسلمين إلي جزيرة الأندلس، وشارك في معركة الأرك حتي استشهد في سبيل الله[١٠٧]. وحقق المسلمون النصر في تلك المعركة.

وإذا كان ابن أبي زرع قد أشار إلي أن أحد المتصوفة قد تولي قيادة جيش المتطوعة، والتادلي قد أمدنا بترجمة لأحد شيوخ التصوف الذي شارك في غزوة الأرك، فإننا نعتقد أن هناك أعدادًا كبيرة من الصوفية قد خرجوا للجهاد في الأندلس. يؤيد ذلك قول المراكشي أن أمير المؤمنين أبا يعقوب المنصور قد اعتمد في جيشه علي أعداد كبيرة من المتطوعين من الصالحين[١٠٨].وكانت معركة الأرك بدون شك آخر معركة عظمي حقق فيها المسلمون انتصارًا حاسمًا علي الأسبان.

ب- معركة العقاب:

ومن معارك الجهاد الأخري التي شارك فيها بعض متصوفة المغرب الأقصىٰ، معركة العقاب[١٠٩] التي وقعت في الخامس عشر من صفر سنة ٦٠٩هـ/ السابع عشر من يوليه سنة ١٢١٢م، في خلافة أبي محمد عبدالله الناصر (٥٩٥-٦١٠هـ/ ١١٩٩-١٢١٣م).

وترجع أسباب تلك المعركة إلي استئناف الأسبان لغزواتهم المخربة في أراضي الأندلس، منتهزين انشغال الخليفة الموحدي الناصر منذ ارتقائه العرش بحوادث إفريقية، واستيلاء بني غانية علي قواعدها وثغورها.

(١٠٧) التشوف إلي رجال التصوف، ص ٣٥٩.

(١٠٨) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص ٢٨٢.

(١٠٩) العقاب حصن يقع فوق قمة أحد جبال الشارات التي تفصل بين الأندلس وأسبانيا النصرانية، وهو يحتل أعلي قمة في الجبل. انظر: محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الثالث: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القسم الثاني: عصر الموحدين وانهيار الأندلس الكبرىٰ، مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٩٠، ص ٣٠٢.

والعمل علي تحريرها عن سير الحوادث في الأندلس[١١٠].ولما اقترب أجل انتهاء الهدنة بين قشتالة والموحدين التي وقعها يعقوب المنصور، أخذ ملك قشتالة ألفونسو الثامن يتأهب لغزو الأندلس للانتقام لهزيمته في معركة الأرك. فخرج من قشتاله في قواته عام ٦٠٥هـ/ ١٢٠٩م صوب جيان وخرب واستولي علي عدة حصون، وأصاب المسلمين من جراء ذلك محن وخسائر فادحة، وخرج في العام التالي سنة ٦٠٦هـ/ ١٢١٠م ووصل في عبثه إلي ولاية مرسية، ثم عاد إلي طليطلة مثقلًا بالغنائم[١١١].

وأمام عجز القوات الموحدية الصغيرة في صد تلك الجيوش الأسبانية الغازية كان لابد أن يعبر أمير المؤمنين بنفسه في جيوشه الجرارة إلي شبه الجزيرة ليقود بنفسه الجيوش الإسلامية، ونفذت كتبه إلي سائر أنحاء المغرب وإفريقية وبلاد القبلة باستنفار الناس للجهاد، فاستجابت سائر الجهات والقبائل للدعوة[١١٢].

وانضم متصوفة المغرب الأقصي إلي الجيش الذي عبر إلي الأندلس، فقد حفظت لنا كتب المناقب ترجمة لشيخ من صوفية المغرب الأقصي انضم إلي الجيش الموحدي، وهو أبو الصبر أيوب بن عبدالله الفهري، وهو من شيوخ التصوف من أهل سبتة، قدم مراكش وصحب أبا يعزي وأبا مدين وأبا غالب، ورحل إلي المشرق، ولقي العلماء والفضلاء، واستشهد في وقعة العقاب عام ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م[١١٣]. وهذا يعني أن هناك الكثير من

---

(١١٠) المراكشي: مصدر سابق، ص ٣١٧، ٣١٨؛ ابن عذاري: مصدر سابق، ص ٢٣٨، ٢٤٥؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص ٥١٧-٥٢٠.

(١١١) المراكشي: مصدر سابق، ص٣١٨؛ محمد عبدالله عنان: مرجع سابق، ص ٢٨٤.

(١١٢) المراكشي: مصدر سابق، ص ٣٢١.

(١١٣) التادلي: مصدر سابق، ص ٤١٥؛ ابن القاضي: مصدر سابق، ج٢، ص ١٦٨؛ العباس بن إبراهيم: مصدر سابق، ج٣، ص ٧١، ٧٢.

متصوفة المغرب الأقصي قد شاركوا في وقعة العقاب مع المتطوعين للجهاد في الأندلس.

هكذا شارك متصوفة المغرب الأقصي في أحداث عصرهم السياسية، كما شاركوا بإيجابية في أحداثه العسكرية. ويرجع ذلك إلي ارتفاع مكانتهم الاجتماعية داخل مجتمعهم.

ثانيا: الدور الاجتماعي لمتصوفة المغرب الأقصى:

تؤكد كتب المناقب أن المتصوفة في بلاد المغرب الأقصي لم ينعزلوا عن مجتمعهم، وتدل مواقفهم علي أنهم كانوا إيجابيين شاركوا أفراد مجتمعهم همومهم وآلامهم، وسعوا جاهدين لكشف الضوائق عنهم. فقد تمسكوا بتعاليم الكتاب والسنة التي تحث علي التكافل والتعاون عن طريق البذل والإنفاق لإسعاف المنكوبين. وكان للمتصوفة دور في الرعاية الاجتماعية وخصوصًا في الأزمات الاقتصادية التي كانت تصيب المجتمع وتحدث مجاعات عاني منها الفقراء والمساكين.

١ - دور المتصوفة في المجاعات:

أسهم المتصوفة في التخفيف عن أفراد مجتمعهم في المجاعات التي تعرضوا لها. فالمتصوف أبو زكريا يحيي بن محمد بن عبدالرحمن التادلي المتوفي عام ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م قام بالتخفيف عن كاهل الناس في المجاعة التي حدثت في مدينة مراكش حين جمع الفقراء الذين بجامع علي بن يوسف، وأخرج لهم سمنًا وقمحًا كان عنده وفرقه عليهم حتي لم يبق له منه شيء(١١٤). كما كان أبو زكريا يملك في مدينة فاس قمحًا في غرفتين، قام

(١١٤) التادلي: مصدر سابق، ص ٢٤٥، ٢٤٦.

بتوزيعه علي المساكين عم ٥٧١هـ/ ١١٧٥م، وانصرم العام ولم يبق من ماله شيء(١١٥).

وسار علي سياسة البذل والإنفاق أيضًا الصوفي أبو عبدالله محمد بن إبراهيم المهدوي – نزيل مدينة فاس، وبها توفي عام ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م – فقد دخل مدينة فاس ومعه حوالي أربعين ألفًا من الدنانير ولم يزل ينفقها في سبيل الخير حتي لم يبق له غير دار ثم باعها. وكان يملك ألف صحفة من قمح، فأصابت أهل فاس مجاعة، فباع جميع ذلك بوثائق وآخرهم في السداد إلي أجل، فلما حل الأجل استدعاهم، وحل الوثائق في الماء، وقال لهم:" أنتم في حل وما بعت الأ من الله ولكن احتلت عليكم بالبيع إلي أجل "(١١٦).

علي أية حال لم يقتصر دور المتصوفة في مساعدة أفراد مجتمعهم في الأزمات الاقتصادية فقط بل كان مستمرًا في مجال الحث علي الصدقات والإحسان العام إلي الفقراء.

٢ – الحث علي الصدقات والإحسان العام:

إن التكافل والرعاية الاجتماعية لدي الصوفية سلوك للتقرب إلي الله والعمل علي مرضاته. ودعمًا لهذا الدور فقد قاموا بالحث علي الصدقة والإحسان العام إلي الفقراء، فالصوفي أبو يعزي يلنور المتوفي عام ٥٧٢ هـ/ ١١٧٦م قدم أضحية عيد الأضحي لمن جاء يسأله(١١٧). والصوفي أبو محمد يسكر بن موسي فقيه مدينة فاس المتوفي عام ٥٩٨هـ/ ١٢٠١م قال :"

(١١٥) التميمي: مصدر سابق، ص ٢١٠، ٢١١؛ التادلي: مصدر سابق، ص ٢٤٦.

(١١٦) التادلي: مصدر سابق، ص ٣٣٢؛ السلاوي: مصدر سابق، ج٢، ص ١٩٠؛ الكتاني: سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، فاس، ١٨٩٩، ج٣، ص ٢٦٧.

(١١٧) أبو العباس العزفي: دعامة اليقين (مناقب الشيخ أبي يعزي)، ص ٦٢.

في هذا المضمار طلبنا التوفيق فوجدناه "إطعام الطعام "[١١٨]. وقام الصوفي أبو زكريا يحيي بن إبراهيم بن عبدالله التادلي المتوفي عام ٥٨٢هـ/ ١١٨٥م بإنفاق ماله كله في سبيل الخير حتي لم يبق له شيء[١١٩].

كما كان أبو العباس السبتي عطوفًا محسنًا إلي المساكين واليتامي والأرامل، فكان يجلس حيث أمكنه الجلوس في الأسواق والطرقات ويحض الناس علي الصدقة ويأتي بما جاء في فضيلتها من الآيات والآثار؛ فتنهال عليه الصدقات فيوزعها علي المساكين وينصرف[١٢٠]. ويقوم مذهب أبي العباس السبتي في التصوف علي الحث علي الصدقة، وكان يرد سائر أصول الشرع إليها[١٢١].

أما الصوفي أبو محمد صالح بن واندلوس، وأصله من تارودانت واستوطن مراكش وأغمات وريكة واستقر أخيرًا بالسوس الأقصي وتوفي بعد عام ٥٩٠هـ/ ١١٩٣م، فكان لا يمسك شيئًا مما يقع في يده من أموال، ولما وصل إلي بلدة تارودانت تصدق علي المساكين بجميع ما ورثه عن أبيه من الأملاك ولم يتمسك بشيء. وفي فترة إقامته بمراكش كان الفقراء لا يفارقون منزله، فتارة يخرج إليهم بصدقات، وتارة يرمي إليهم الدراهم من بين الأبواب[١٢٢].

والمتصوف أبو العباس أحمد بن عبدالعزيز السلاجي – وهو من أهل الجانب الشرقي من مراكش - توفي عام ٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م – كان لا يبيت وعنده مال معلوم يركن إليه فكان يسعي حتي يتصدق به، وكان عندما يمشي يطرح عليه أثرياء المنطقة أنواع الثياب، فيطرحها هو علي الفقراء ويبقي بمرقعة[١٢٣].

---

(١١٨) ابن قنفذ: مصدر سابق، ص ٢٣؛ ابن القاضي: مصدر سابق، ج٢، ص ٥٦٢.
(١١٩) التادلي: مصدر سابق، ص ٢٤٨.
(١٢٠) أحمد بابا: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تقديم عبدالحميد عبدالله الهرامة، الطبعة الأولى، طرابلس، ١٩٨٩، ص ٧٢؛ السلاوي: مصدر سابق، ج٢، ص ٢٣٥.
(١٢١) التادلي: مصدر سابق، ص ٤٥٣.
(١٢٢) المصدر السابق، ص ٣٤٧-٣٤٩؛ العباس بن إبراهيم: مصدر سابق، ج٧، ص ٣٤٢.
(١٢٣) التادلي: مصدر سابق، ص ٣٧٧، ٣٧٨.

كما باع الصوفي أبو عمران موسي الصاريوني أرضًا كانت له وتصدق بثمنها علي المساكين(١٢٤). والصوفي أبو علي حسن بن علي المطغري المؤذن الذي نزل في الجانب الشرقي من مراكش، كان بعد أن يأخذ أجرته نظير عمله يبقي منها شيئًا لقوته، ويتصدق بالباقي علي المساكين(١٢٥).

وتتعدد وجوه البر والإنفاق في سبيل الله لمتصوفة المغرب الأقصى، فمنهم الصوفي أبو إبراهيم إسحاق بن محمد الهزرجي المتوفي عام ٥٨١هـ/ ١١٨٦م الذي كان يتفقد مكاتب الصبيان ليعطف وينفق علي أبناء الأيتام والفقراء(١٢٦).

والصوفي أبو عبدالله التاودي المعلم الذي كان من أهل فاس، وتوفي عام ٥٨٠هـ/ ١١٨٥م، كان يملك مكتبًا لتعليم الصبيان، فكان لا يأخذ الأجر من أولاد الفقراء، ويرد عليهم ما يأخذه من أجر من أولاد الأغنياء، وبلغ في عطفه وإحسانه عليهم أنه كان يغسل أثواب الصبيان ويخيطها إذا احتاجت إلي ذلك، ولا يأخذ علي ذلك أجرًا(١٢٧). وهناك من حبس فدانًا لدفن موتي المسلمين(١٢٨). بل هناك من تصدق علي فقراء أهل الذمة، فقد تصدق الصوفي عبدالجليل بن ويحلان المتوفي عام ٥٤١هـ/ ١١٤٦م بجبة ثمنها عشرة دنانير لنصراني مر به(١٢٩).

أمثلة كثيرة تمدنا بها المصادر المناقبية توضح جهود هؤلاء المتصوفة في أعمال البر والخير تأكيدًا لمبدأ التكافل الاجتماعي والرعاية الاجتماعية الذي يأمرنا به الإسلام.

---

(١٢٤) المصدر السابق، ص ٢٨٨.
(١٢٥) العباس بن إبراهيم: مصدر سابق، ج٣، ص ١٣٤.
(١٢٦) التادلي: مصدر سابق، ص ٢٤١.
(١٢٧) المصدر السابق، ص ٢٧٢؛ الكتاني: مصدر سابق، ج٣، ص ١١٠؛ السلاوي: مصدر سابق، ج٢، ص ١٨٨.
(١٢٨) التادلي: مصدر سابق، ص ٣٦٩.
(١٢٩) المصدر السابق، ص ١٥٠.

ثالثًا: المتصوفة والعمل:

للعمل في الإسلام مكانة مرموقة، فهو قيمة أساسية من قيم المجتمع المسلم، ويمنح اليد العاملة توقيرًا وفضلًا كبيرًا. لقد فهم صوفية المغرب الأقصي – كما أوردت كتب المناقب – المعاني التي حثت علي العمل، والتي جاءت في الكتاب والسنة النبوية، كما أنهم فهموا صلة الصوفي بمجتمعه. فهم لم يقروا أن يعيش الصوفي عالة علي غيره؛ لذلك قدروا قيمة العمل فكانوا يعملوا ويكسبوا رزقهم، وفي الوقت ذاته لا يصرفهم ذلك عن طاعة الله وعبادته. فالكسب عندهم فضيلة تحرر الإنسان من ذل المسألة، ويعني الكسب أن يكون الصوفي مشتغلًا بشتي الحرف، والتجارات، وغير ذلك مما أباحته الشريعة علي تيقظ، أو تثبت بعيدًا عن الشبهات .وقد تمسكوا بهذه المعاني وعاشوا من كد أيديهم(١٣٠).وأمدتنا المصادر بالأعمال التي مارسها صوفية المغرب الأقصى، وقد تعددت هذه الأعمال فشملت الزراعة، والرعي، والصناعة، والتجارة، وغيرها من الحرف.

١ – المتصوفة والعمل الزراعي والرعوي:

قام متصوفة المغرب الأقصي بالعمل في زراعة أراضيهم، وقاموا بجميع العمليات الزراعية من حرث وحصاد ودرس. فكان أبو محمد خميس بن أبي زرح الرجراجي الأسود يملك أرضًا يقوم بزراعتها وخدمتها بنفسه، وكان لا يأكل إلا من عمل يده تقديرًا لقيمة العمل. وفي أحد الأعوام استحق فدانه الحصاد فتواصي فتيان القرية علي حصاده دون أن يعلموه، فأقبل أبو محمد وقد رآهم قد حصدوا جزءًا من فدانه فقال لهم: كفوا بارك الله فيكم، فقالوا له: ما حصدنا إلا طائعين متبرعين، فقال لهم: يكفيكم ما

(١٣٠) المصدر السابق، ص ٣٤٨.

حصدتم فعسي أن تجمعوه، فجمعوا ما حصدوا، وحازه بموضع واحد فعزله وتصدق به وكره أن يأكل مما عملوه من غير أجرة(١٣١).

وكان أبو عبدالله يلاسيف الرجراجي يقوم بأعمال الزراعة في أرضه، ويخدمها بنفسه(١٣٢)، وغيرهم كثير من الصوفية الذين كانوا يعملون في زراعة أراضيهم(١٣٣).

وهناك من المتصوفة من كان لا يملك أرضًا لزراعتها، ولكنهم كانوا يعملون بالأجر في أراضي غيرهم. منهم أبو الحسن علي الصنهاجي من أهل تادلا الذي كان يعيش من حراسة البساتين، والحصاد، وأنواع الخدمة الأخرىٰ(١٣٤). وحين احتاج أحد ملاك الأراضي إلي حصاد في وقت الحصاد التمس أجيرًا علي الحصاد، فوجد الصوفي عبدالله الجزولي من أهل سجلماسة، والمتوفي في حدود عام ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م، فاستأجره فحصد له زرعه، ثم استعمله كل عامٍ في حصاد أرضه(١٣٥).

كما مارس صوفية المغرب الأقصي أيضًا العمل الرعوي، فقد كان لأبي زكريا يحيي بن موسي المليجي من بلد رجراجة، أبقار يتولي رعايتها بنفسه، وحين سافر إلي المشرق للحج استأجر راعيًا ليقوم بالرعي مكانه(١٣٦). كما كان أبو يعزي يلنور المتوفي عام ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م يعمل راعيًا(١٣٧). وجدير بالذكر أن هؤلاء المتصوفة كانوا يحثون الرعاة ومن يملك الدواب ألا يجعلوا هذه

(١٣١) التادلي :مصدر سابق، ص ١١٣.
(١٣٢) المصدر السابق، ص ٣٥٧.
(١٣٣) المصدر السابق، ص ٣٧٦، ٤٠٠.
(١٣٤) المصدر السابق، ص ٢٥٤-٢٥٥.
(١٣٥) المصدر السابق، ص ٢٧٨.
(١٣٦) المصدر السابق، ص ١١٢.
(١٣٧) المصدر السابق، ص ٢١٥.

الدواب ترعي في أرض الغير لأن ذلك مخالفًا للشرع(١٣٨)، ولم يكتفوا بالنصح والإرشاد، بل ضربوا المثل، والقدوة الطيبة لأفراد مجتمعهم. فمن المتصوفة من كانت له أبقار إذا حملها من داره لترعى، جعل علي فمها كمامة، لئلا ترعي في أرض أحد، فإذا وصل إلي أرضه أزال الكمامة عن فمها، وجعلها ترعي في أرضه، فإذا أراد أن يعود إلي داره أعاد الكمامة، وساقها إلي داره(١٣٩).

٢ – المتصوفة والعمل بالصيد وتربية النحل:

مارس حرفة الصيد الصوفي أبو حفص عمر بن معاد الصنهاجي من بلد أزمور المتوفي عام ٥٦١هـ/ ١١٦٥م، وكان يصطاد السمك من سواحل البحر المحيط، ويقتات بذلك، كما كان يقوم بجمع عسل النحل من البرية(١٤٠). وكان أبو موسي الدكالي من أهل سلا يجمع ما يلفظه البحر من مباح الأكل، فيبيعه ويشتري بثمنه خبزًا(١٤١). وعمل أيضًا بحرفة الصيد الصوفي أبو جعفر محمد بن يوسف الصنهاجي من بلاد تادلا، وبها توفي عام ٦٠٨هـ/ ١٢١١م. وبالإضافة إلي ذلك كان هذا الصوفي يتخذ خلايا النحل، ويقوم ببيع العسل للإنفاق علي نفسه، والتصدق علي الفقراء(١٤٢).

٣ = المتصوفة والعمل بالحرف والصناعات:

تعددت الحرف التي مارسها صوفية المغرب الأقصى، مما يؤكد مشاركتهم بإيجابية في النشاط الحرفي في المجتمع. فقد كان الصوفي أبوعمران

---

(١٣٨) المصدر السابق، ص ٢٥١.
(١٣٩) المصدر السابق، ص ١٣٤.
(١٤٠) التادلي :مصدر سابق، ص ١٨٣.
(١٤١) المصدر السابق، ص ٢٠٦.
(١٤٢) المصدر السابق، ص ٤٠٣.

موسي بن يدراس الحلاج يعمل حلاجًا للقطن في مدينة فاس(١٤٣). وكان أبو عبدالله الصوفي يعمل خياطًا(١٤٤). كما عمل بحرفة الحياكة أيضًا الصوفي أبو العباس أحمد بن عبدالرحمن الصنهاجي الجباب الأزموري، المتوفي عام ٥٩٢هـ/ ١١٩٥م(١٤٥).

وهناك من المتصوفة من تخصص في صناعة الأطباق مثل أبي الحسن علي بن زكريا الأسود(١٤٦). وتخصص البعض في صناعة القدور مثل أبي زكريا بن يحيي بن ميمون الصنهاجي من بلد أزمور، وبها توفي عام ٦٠١هـ/ ١٢٠٤م، وكان هذا الصوفي يصنع القدور ويبيعها ويشتري بثمنها شعيرًا، فيطحنه بيده، ويخبزه ويأكل منه(١٤٧). كما كان الصوفي أبو ويعزان بيريدن بن وبيدن الأيلاني، المتوفي عام ٦١٠هـ/ ١٢١٣م، يعمل أيضًا في صناعة القدور، وكان يقتات بثمنها(١٤٨).

أما الصوفي أبو سعيد عثمان اليرصجي من بلد دكالة، وتوفي في حدود ٥٩٠هـ/ ١١٩٣م، فكان يقوم بعمل أحجار الأرحاء التي تستخدم في طحن الحبوب(١٤٩).

ومن الحرف التي عمل بها صوفية المغرب الأقصى، حرفة دبغ الجلود،

---

(١٤٣) ابن قنفذ: مصدر سابق، ص ٣٨.

(١٤٤) التميمي: مصدر سابق، ص ١٨٥؛ التادلي: مصدر سابق، ص ٢٥٧.

(١٤٥) العباس بن إبراهيم: مصدر سابق، ج٢، ص ٨٩.

(١٤٦) التادلي: مصدر سابق، ص ٢٦٨.

(١٤٧) المصدر السابق، ص ٤١٤.

(١٤٨) المصدر السابق، ص ٤٣١؛ العباس بن إبراهيم: مصدر سابق، ج١٠، ص ١٩٦.

(١٤٩) التادلي: مصدر سابق، ص ٣١٩.

فقد كان أبو علي حسن بن علي المطغري، المتوفي عام ٦٠٣هـ/ ١٢٠٦م يعمل بدبغ الجلود، وإذا أراد أحد أن يستأجره علي دبغ الجلود، يشترط علي مستأجره أن يتوضأ متي انتقض وضوءه وأن يصلي الظهر والعصر في جماعة(١٥٠).

٤ – المتصوفة والعمل التجاري:

عمل بعض المتصوفة في النشاط التجاري من بيع وشراء. فقد كان لأبي إبراهيم إسحاق بن محمد الهزرجي – وهو من أهل الجانب الشرقي من مراكش وتوفي عام ٥٨١هـ/ ١١٨٥م – دكانًا لبيع الإسفنج والهريسة، فإذا حصل من ثمن بيعها وربحها ما يكفيه ويكفي أصحابه، أطعم المساكين بقية ما تبقي عنده من الهريسة(١٥١). كما كان أبو يعقوب يوسف بن علي المؤذن من أهل داي وتوفي عام ٥٥٧هـ/ ١١٦١م، يعمل عطارًا وله دكانًا في سوق مدينة داي(١٥٢).

كما كان أبو محمد عبدالواحد بن تومرت الهسكوري الأسود يبيع الخضروات في السوق في قفة، وكان يرفض اتخاذ دكانًا في السوق، ويقول: "إذا حانت الصلاة توضأت ودخلت المسجد ووضعت قفتي عند ساريه، وإذا اتخذت دكانًا وحانت الصلاة، ومررت إلي المسجد يوسوس إليَّ الشيطان ويقول: لعلك سرق لك شيء فلا يصفو لي خاطري في الصلاة "(١٥٣).

---

(١٥٠) المصدر السابق، ص٣٨٤.

(١٥١) المصدر السابق، ص ٢٤١-٢٤٢؛ العباس بن إبراهيم: مدر سابق، ج٣، ص ٥٩

(١٥٢) التادلي: مصدر سابق، ص ١٦٧-١٦٨.

(١٥٣) المصدر السابق، ص٣٥٩.

وعلي أي حال، فإن مشاركة صوفية المغرب الأقصي في أوجه النشاط الاقتصادي المختلفة توضح أنهم فهموا أن التصوف الصحيح لا يرضي بحال أن تصرف العبادات أصحابها عن طلب الرزق والكسب. فالزهد أن يزهد الصوفي فيما يملكه بكده وكسبه الحلال فيتصدق به علي فقراء المسلمين، وليس الزهد أن يزهد المرء فيما لم تصل إليه يده، ولم يدخل في ملكه. ولذلك لم يعش هؤلاء المتصوفة عالة علي مجتمعهم، فالعمل كما فهموه واجب شرعي لعمارة الأرض، ولمساعدة المحتاجين من الناس مما يدره هذا العمل من كسبٍ حلال.

خاتمة:

علي أية حال أبرزت هذه الدراسة أهمية كتب المناقب في كتابة تاريخ الفئات المهمشة التي أهملت وغيبت في الحوليات التاريخية - وعلي ما أعتقد - دون قصد من مؤرخي هذا العصر، فظروف العصر وثقافته حالت دون ذلك، واقتصر مجال الكتابة التاريخية علي التاريخ السياسي والعسكري، فهؤلاء المؤرخون لم يكن لديهم إدراك لأهمية كتابة تاريخ العوام، فمؤرخوا المشرق والمغرب اعتمدوا المنهج السائد في كتابة التاريخ في هذا العصر وهو أن الفرد هو صانع التاريخ.

وقد أمكن للباحث من خلال كتب المناقب من رسم صورة لحياة الصوفية في مجتمع المغرب الأقصي يظهر فيها عدم انعزال الصوفية عن مجتمعهم ومشاركتهم بإيجابية في أحداث عصرهم، كما تبرز الصورة أيضًا منهج هؤلاء في الحياة، وممارستهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية.